مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة1 المجلد(20) – العدد (01) (جوان،2019)- ص329-346
ISSN 1111-5149 /E.ISSN 2430-2588

المغالطات الحجاجية في قصة يوسف الصديق عليه السلام

The argumentative fallacies in the story of Yusuf Al-Siddiq Peace be upon him

ابتسام بن خراف،[1]جامعة باتنة1، Ibtissem.7@gmail.com

تاريخ الاستلام: 04-02-2019تاريخ المراجعة: 01-06-2016تاريخ القبول: 03-06-2019

ملخّص:

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن الوجه السلبي للحجاج في قصة يوسف الصديق عليه السلام، واصفة سبل التضليل التي اعتمدها المحاورُ قصد تمويه المخاطَب واستدراجه رغبا أو رهبا.وتبحث الدراسة في المغالطات المعتمدة في الإيقاع بالمخاطَب لإيهامه، حتى تجلي الضمني ذا الطاقة الحجاجية، وهي مغالطات تكون على سبيل الاقتضاء أو القول المضمر. وتحاول الإجابة عن التساؤل الآتي: كيف تمظهرت المغالطات الحجاجية التي اعتمدها المخاطِب في حواره حتى يصل إلى النتيجة المتوخاة؟ وقد توصلت الدراسة إلى نتائج لعل أهمها هو تنوع الحجج المغالطة في قصة يوسف الصديق بين حجج مغالطة لغوية وغير لغوية ، وكان هدفها إيهام المخاطَب وحمله على الإقناع .

الكلمات المفتاحية: الحجاج المغالطة ، الاقتضاء، القول المضمر ، الطاقة الحجاجية.

Abstract:

This study seeks to uncover the negative face of the argumentation in the story of Yusuf Al-Siddiq peace be upon him, describing the ways that the interlocutor adopted in order to lure the addressee willingly or fearfully. While the methods of disinformation vary between explicitness and implicitness in the story, the study aims to highlight the most important linguistic and non-linguistic capabilities adopted by the addressor in order to mislead the recipient. The study thus reveals the implied energy of the argumentation, which is required or implied.The study attempts to answer the following question: How does the interlocutor adopt the argumentative fallacies in his dialogue in order to achieve the desired result?

Keywords: Falsified argumentation; exigency; the implicit say; the argumentative energy; disinformation

[1]- المؤلف المرسل

مقدّمة

وصف القصص القرآني أحوال النفس البشرية وتعمَّد إلى كشف خفاياها، حيث قدم تشخيصاً حيّاً لكثير من الانفعالات النفسية والسلوكيات، مثل الخوف والغضب والخجل والسخرية والبغض... وغيرها معتمداً في عرضها على التصوير الفني القائم على الحوار تارة، وعلى الحركة تارة أخرى، وعلى الوصف ثالثة.

وتعد قصة يوسف الصديق عليه السلام نموذجا لهذا التصوير، لما عرضته من وصف للأهواء الانفعالية السلبية والإيجابية لشخصيات القصة عبر النشاط القولي وبخاصة في مظهره التحاوري؛ ذلك أن الكلام ينقل مضمرات الحالة النفسية من حالة الكمون إلى حالة البروز فيسعفها على التأثير في الآخر. وكان التأثير والاستمالة هدفي المتحاورين في القصة، ليس بالإقناع والإذعان فحسب بل حتى بالإيهام والتدليس والمغالطة، ولذلك تحاول الدراسة الكشف عن الوجه السلبي للحجاج في قصة يوسف الصديق عليه السلام، واصفة سبل التضليل التي اعتمدها المحاورُ قصد تمويه المخاطَب أو استدراجه رغبا أو رهبا.

وتهدف الدراسة إلى محاولة إبراز أهم الإمكانات اللغوية وغير اللغوية التي اعتمدها المخاطِب للإيقاع بمتلقيه، لما كانت أساليب التضليل تتفاوت بين الخفاء والجلاء في القصة، مجلية بذلك الضمني ذي الطاقة الحجاجية الكائن على سبيل الاقتضاء أو القول المضمر.

تعتمد الدراسة المنهج التداولي في رصد الحجج المغالطة وتحليلها، وبيان أثر التمويه أو الاستدراج، وتحاول الإجابة عن التساؤل الآتي: كيف تمظهرت المغالطات الحجاجية التي اعتمدها المخاطِب في حواره حتى يصل إلى النتيجة المتوخاة؟ وتستعين الدراسة بمراجع تداولية معاصرة لتحديد مفهوم الحجاج المغالط، وبكتب التفسير لبيان الحجج المغالطة، وذلك من خلال ثلاثة مباحث رئيسة هي: المغالطة: بنيتها ودلالتها، مفهوم الحجاج المغالط، أنواع المغالطات الحجاجية في قصة يوسف الصديق.

أولا: نشأة نظرية الحجاج المغالط

كانت نشأة الدرس الحجاجي وتطوره في منتصف القرن العشرين، وجاء نتيجة سلسلة من الأبحاث التي انصرفت إلى دراسة الأجناس اللاصورية واللابرهانية من

التراث اليوناني والأرسطي خصوصا، والتي تفاعلت مع التراث في مختلف الأعمال التي أتت بعده.

وقد زخر الدرس الحجاجي بعدها بإنجازات نظرية مهمة، جعلت الدارسين يتطلعون إلى نقل الحجاج من مجرد نظرية خاصة ليتحول إلى تقنيات تطبيقية يمكن اعتمادها فعليا في الممارسة الحجاجية الواقعية.

وأكد عدد من الباحثين أن هذه الملكة الحجاجية لن تكتمل إلا بالانفتاح على درس السفسطة؛ أي تلك الأحوال التي يخرج فيها الحجاج من وجهه النموذجي ليتحول إلى ممارسة باطلة، منتجة ما اصطلح عليه بالحجج المعوجة، وهو ما يخل بما ينبغي أن يكون الهدف الأصلي من وراء كل ممارسة حجاجية عاقلة، ويخرق القواعد والأعراف الأساسية لهذا النشاط المتميز، خصوصا وأن أي نشاط حجاجي هو من حيث طبيعته النوعية يكون في العادة مرشحا للانزلاق إلى ممارسة غير سليمة، بسبب ما يحيط به من معطيات نفسية واجتماعية. (الراضي، 2008، ص146).

من هنا برز في الدرس الحجاجي المعاصر توجُّهٌ يصطلح عليه بتوجه مقاربة السفسطة، ويعد عنصرا مكملا للدرس الحجاجي، ولا يتم هذا الدرس إلا به، لأن البحث في السفسطة يمثل بعبارة كريستيان بلانتين Christian Plantin "الوجه السالب للحجاج مقابل الوجه الموجب"، الذي يدرس النشاط الحجاجي السليم.

ثانيا:الحجة المغالطية،البنية والدلالة

يرى رشيد الراضي أن مصطلح "السفسطة"/ المغالطة يقابله في الفرنسية مصطلح "sophisme" وفي الإنجليزية "fallacy"، ويفيد لفظ "sophisme" في أصله اللغوي اليوناني الانتساب إلى الحكمة (صوفيا/ الحكمة) والتي تعني "sophos" في اللغة اليونانية الحكيم أو معلم الحكمة، أما السفسطة فتعني نوعا من الحكمة القولية التي يتعين تلقينها وتدريسها، ثم تحولت هذه الكلمة لتكتسب معنى قدحيا تحت تأثير النقد الأفلاطوني والأرسطي، وتحدد معناها في: نوع من الحجج التي يدَّعي واضعها أنها حجج مشروعة من دون أن تكون كذلك، أي أنها نوع من المخاطبة المخادعة المقدوح فيها علميا وأخلاقيا (الراضي، 2008، 143-147).

أما اللفظ "fallacy" ذو الأصل اللاتيني فهو يختلف في مدلوله الحرفي، إذ ورد في معجم Gaffiot أن النعت "Fallax" في اللاتينية يفيد معنى مغالط وخادع،

والاسم المقابل له "fallacia" معناه الخديعة والحيلة بل وحتى السحر، وتخصص اللاتينية لفظ "fallaciloquus" للدلالة على الخداع الذي يتم بواسطة القول، ومنه الفعل ""faller"fallo" الذي يفيد خداع شخص ما، ويفيد في سياقات معينة "خيب أمل شخص، وخان العهد، وأخلف الوعد...إلخ... ويرتبط هذا اللفظ في أصله الاشتقاقي اللاتيني بمعاني قدحية (الكذب، الخديعة، الحيلة، الغلط...) وهذه المظاهر لها حضور كبير في العلاقات الإنسانية، وتنعكس بوضوح في النشاط القولي، وخاصة في مظهره التحاوري. (المرجع نفسه، ص147)

أما محمد النويري فيرى أن فريق الترجمة الفرنسية، استعمل مصطلح "برالوجيسم" في مقابل المصطلح الإنجليزي Fallacy، وهو كما تم ذكره مصطلح من أصل لاتيني "fallacia" ويعني المغالطة والمكر والخداع والحيلة. والكلمة الفرنسية "Paralogisme" مشتقة من اليونانية "Paralogismos" وهي تتكون من جزئين"para" وتعني "faux- à coté" (مجانب- خاطىء) و"logismos" وتعني -calcul "raisonnement" (حساب- استدلال) فهي تعني إذن حجاجا خاطئا.

وتضيف المعاجم الحديثة فكرة حسن النية مما يجعل من تعريف البرالوجيسم فيها حجاجا خاطئا عن حسن نية، ويكون بذلك مقابلا لمفهوم "sophisme" بحيث يبدو اختلال الحجة قائما على سوء النية أو بصفة أدق حيث يحكم سوء النية البنية المنطقية للحجة (النويري، دت، ص406)

أما كريستيان بلانتان فقد دعا إلى اعتماد اللفظ "fallacie "في اللغة الفرنسية للدلالة على السفسطة، وذلك لما له من أهمية خصوصا صلته باللغة اللاتينية واشتماله على معنى المغالطة (,faux,false، غلط). (الراضي، 2008- 178)

وبالعودة إلى التراث الفلسفي العربي وخصوصا ذاك المتعلق بنقل آثار أرسطو المنطقية إلى العربية، نجد محاولات عديدة لا تخلو من الفائدة في نقل مصطلح "برالوجيسموس" إلى العربية، يمثل ذلك ما نقله المترجمون العرب (يحي بن عدي، عيسى بن اسحاق بن زرعة، الناعمي، ابن رشد) للفقرة الأولى من كتاب التبكيتات إلى العربية، وأغلب هذه الترجمات العربية اعتمدت مادة (ض.ل.ل) (تضليلات ، مضلات، مضللات).

ويستعمل ابن رشد مصطلح "المغالطة" و"الحجة المغالطية" و"القياس المغالطي" في معنى مواز لمفهوم البرالوجيسم الأرسطي (النويري، دت، 412)

وتلتقي هذه الكلمات جميعها عند مفهوم واحد يراعي غايات المحاجة السوفسوطائية ومقاصدها وهي خداع السامع، مع وجود تفاوت في الإشارة إلى إشكالية العلاقة بين بنية الحجة المختلة منطقيا ومظهرها الذي يبدو سليما.

ثالثا: مفهوم الحجاج المغالط

تعرف المغالطة بأنها حجاج غير صحيح أو استدلال فاسد، ومن أتى بها مغالط أو غالط في نفسه مغالط لغيره، وهناك من يصفها بأنها حجاج لا يمكن أن نقنع به إنسانا متعقلا ومتفكرا، أو أن نجعله يقبل بنتيجة ما، فالإنسان يقع في مغالطة متى قبل بنتيجة مبنية بطريقة مضللة أو أنه استخدم حجاجا مغالطا بهدف الإقناع.

وتجمع المغالطة، ضمن مكوناتها، بين ما هو منطقي ولغوي ونفساني وبلاغي، فالمغالطة قياس فاسد، إنها "قياس وهمي غير منتج، يراد به التغليط وإسكات الخصم وإظهار الانتصار عليه بتضليله عن الحقيقة".(يعقوبي، 1999، ص267-271) وذلك باستعمال سبل مختلفة وطرق غير مشروعة.

وفي الوقت نفسه تكون المغالطة حجاجا مغالطا يقوم على نوع من الإغراء الذي ينجح من خلاله المغالط في خداع الضحية، كما أن استناد المغالطة إلى أخطاء تنسيقية وتدليلية يبرز أن المغالط قد يستغل عدة إمكانات منها ما هو لغوي ومنها ما هو خارج لغوي، بهدف الإيقاع بالمخاطب وجعله يعتقد فيما هو أنه ليس هو، وفيما ليس هو أنه هو.(الباهي، 2007، ص166)

ويعرف الباحثان الهولونديان "إيمرن" و"خروتندوست" مصطلح الحجاج المغالط/ السفسطة في تصورهما التداولي الجدلي بأنه "أفعال اللغة التي تعوق بوجه كيفما كان حل منازعة ما في سياق المحاورة... ففي هذا المنظور لا يعني ارتكاب سفسطة/ حجاج مغالط ما إقداما على سلوك مقدوح فيه أخلاقيا، ولكنه يشكل غلطا من حيث كونه يعيق الجهود التي تبذل من أجل حل المحاورة"(الراضي،2008، ص155)

إن الحجاج المغالط فعل كلامي سلبي يسعى من خلاله المخاطِب إلى التأثير الذهني في المتلقي وتوجيهه إلى عمل ما ودفعه إليه، ومن ثم الوصول إلى النتيجة المتوخاة عن طريق استعمال مجموعة من المغالطات.

رابعا: الحجة المغالطية في الدرس العربي

1.الدرس المعجمي

جاء في لسان العرب لابن منظور: "الغلط: أن تعيا بالشيء فلا تعرف وجه الصواب فيه. وقد غلط في الأمر يغلط غلطا وأغلطه غيره، والعرب تقول: غلط في منطقه وغلت في الحساب غلطا وغلتا، وبعضهم يجعلهما لغتين بمعنى. قال: والغلط في الحساب وكل شيء، والغلت لا يكون إلا في الحساب... قال الليث : الغلط كل شيء يعيا الإنسان عن جهة صوابه من غير تعمد. وقد غالطه مغالطة. والمغلطة والأغلوطة: الكلام الذي يغلط فيه ويغالط به؛ ومنه قولهم: حدثته حديثا ليس بالأغاليط. والتغليط: أن تقول للرجل غلطت. والمغلطة والأغلوطة: ما يغالط به من المسائل؛ والجمع الأغاليط... وقال الخطابي : يقال مسألة غلوط إذا كان يغلط فيها كما يقال شاة حلوب وفرس ركوب، فإذا جعلتها اسما زدت فيها الهاء فقلت غلوطة كما يقال حلوبة وركوبة، وأراد المسائل التي يغالط بها العلماء ليزلوا فيهيج بذلك شر وفتنة، وإنما نهى عنها لأنها غير نافعة في الدين ولا تكاد تكون إلا فيما لا يقع، ومثله قول ابن مسعود :أنذرتكم صعاب المنطق؛ يريد المسائل الدقيقة الغامضة. فأما الأغلوطات فهي جمع أغلوطة أفعولة من الغلط كالأحدوثة والأعجوبة "(ابن منظور، 2003، مادة غلط)

يبين نص ابن منظور أن الغلط في الكلام يؤدي إلى فتنة وشر، وبخاصة في المسائل التي يقصد بها زلل العلماء.

ونجد في باب الطاء فصل الغين من القاموس المحيط ؛أن "الغلط محركة أن تعيا بالشيء فلا تعرف وجه الصواب فيه، وقد غلط كفرح، في الحساب وغيره أو خاص بالمنطق وغلت بالتاء في الحساب، والأغلوطة بالضم والمغلطة الكلام يغلط فيه ويغالط به، والمغلاط الكثير الغلط والتغليط أن يقول له غلط وغالطه مغالطة وغلاطا" (الفيروزابادي، 2005، باب الطاء فصل الغين).

وفي هذا النص يؤكد الفيروزبادي أن الغلط في الكلام قياس فاسد يؤدي إلى التمويه.

2.الدرس الفلسفي

تمثل إسهامات أبي نصر الفارابي الموقف الفلسفي الإسلامي العربي القديم من الغلط ومن التغليط، فقد وقف الفارابي على الغلط والتغليط في كتابه "الأمكنة

المغلطـة" وهي أحد مكونات منطقه الذي قرَّب به منطق أرسطو.(ينظر النقاري، دت، ص192)

ويرى حمو النقاري أن الغاية التي توخاها أبو نصر الفارابي من الاهتمام بالغلط والتغليط وبمختلف وجوههما هي بيان كيفية اتقائهما والتحصن منهما في حالة النظر المتفرد والمتوحد وفي حالة التناظر مع الأغيار المخالفة، ولا يميز الفارابي بين وجوه الغلط ووجوه التغليط لأنه يَعُدُّ الأمكنة التي يقع فيها الغلط هي الأمكنة نفسها التي تقع بها المغالطة، يقول الفارابي في هذا الأمر: "فينبغي الآن أن نقول في الأمكنة التي منها يغلط الناظر في الشيء وفي الأمور التي من شأنها أن تزيل الذهن عن الصواب في كل ما يطلب إدراكه، ويخيل الباطل في صورة الحق، وتلبس على الإنسان موضع الباطل فيما يقصد علمه فيقع فيها من حيث لا يشعر".

وهذه الأمكنة بأعيانها هي التي يمكن أن يغالط الإنسان فيها من يخاطبه حتى إن كان مطالبا أو ملزما أوهم أنه طالب وتسلم من غير أن يكون طالب و تسلم، و بها يوهم أنه ألزم وعاند من غير أن يكون عاند في الحقيقة، وإن كان مجيبا أو محاميا أو واضعا أوهم بها أنه سلم من غير أن يكون سلم أو دافع من غير أن يكون قد دافع في الحقيقة. فإنها [الأمكنة] إذا تبينت لنا لم يخف علينا كيف الوجه في التحرز منها عن النظر إما فيما بيننا وبين أنفسنا وإما فيما بيننا وبين غيرنا" (الفارابي، 1986،ص132).

ويرى الفارابي أن نقص الإنسان هو السبب في وقوعه ضحية الغلط والتغليط، ونقص الإنسان عنده بصفة عامة جهله بالنظريتين الأرسطيتين القياسية والجدلية، يقول: "هذه المواضع ليست تغلط كل إنسان، وإنما تغلط من كان به نقص. والنقص بالجملة هو:

- أن لا يعرف القياس وأصنافه ولا المقدمات على الجهة التي حددنا.
- أو أن يعرفه لا بأجزاء حدِّه على التمام.
- أو أن ينقصه إحدى تلك القوى الأربع [الآلات الجدلية الأربعة: آلة الاقتضاب، آلة القدرة على تمييز الاشتراك، آلة القدرة على تمييز الفضول، آلة القدرة على إدراك التشابه].
- أو أن تكون تلك القوى بأسرها ناقصة".(الفارابي،1986، ص163)

ويقرر الفارابي أنه: " متى عرفنا القياس وقوينا على تباين ما بين الأشياء لم يقع علينا غلط إذا تأملنا ولا مغالطة إذا خوطبنا".(الفارابي،1986 ، ص164)

لقد عمد أبو نصر الفارابي إلى تعيين جملة من وجوه الغلط والتغليط مفصلا القول فيها وجها وجها. وتتمثل هذه الوجوه المعتبرة منطقيا في الآتي:(الفارابي،1986، ص150.-156)

-الغلط والتغليط بالمصادرة على المطلوب بنوعيه "البيان الدائر" و"المصادرة مقابل المطلوب".

- الغلط والتغليط في النقلة.
- الغلط والتغليط في اللزوم بنوعيه "اللزوم المستقيم" و"اللزوم بالخلف".
- الغلط والتغليط بتحويل المقصور إلى المطلق.
- الغلط والتغليط بتحويل المطلق والمقيد.
- الغلط والتغليط بتحويل الكثير إلى الواحد.
- الغلط والتغليط بالمحمولات العرضية.

3.الدرس النقدي

تمثله إسهامات حازم القرطاجني في مؤلفه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، حيث جعل فيه المغالطات قسمين: مغالطات ترجع إلى القول ذاته و مغالطات ترجع إلى المقول له؛ أي المتلقي، يقول: "وإنما يصير القول الكاذب مقنعا وموهما أنه حق بتمويهات واستدراجات ترجع إلى القول أو المقول له، وتلك التمويهات والاستدراجات قد توجد في كثير من الناس بالطبع والحنكة الحاصلة باعتياد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظنون في شيء ما أنه على غير ما هو عليه بكثرة سماع المخاطبات في ذلك والتدرب في احتذائها" (القرطاجني،1986، ص63).

فأما القسم الأول من المغالطات؛ فيتمثل في جملة من الحجج التي ترمي إلى الإيقاع بالمتلقي وحمله على الإذعان، والحال أنها لم تستقم حججا صحيحة لذا سماها حازم القرطاجني "تمويهات".

وأما القسم الثاني فيشمل ما يثير به المتكلم متلقيه بوصفه ومدحه والتقرب إليه وسماها "استدراجات". وتكون "الاستدراجات" بتهييىء المتكلم بهيئة من يقبل قوله، أو باستمالة المخاطب واستلطافه له بتزكيته وتقريضه، أو باطبائه إياه لنفسه

وإحراجه على خصمه حتى يصير بذلك كلامه مقبولا عند الحكم وكلام خصمه غير مقبول. (المرجع نفسه،ص64).

خامسا: أنواع المغالطات الحجاجية في قصة يوسف الصديق

1. سبل التغليط خارج – لغوية

يقصد بالمغالطات خارج لغوية كل الضوابط المادية التي يستعين بها المغالط للإيقاع بمخاطبه، حيث يحاول تمرير كلامه بكل الحيل الممكنة، كما أنه لا يتوارى في استغلال كل الظروف والفرص التي تتاح لصالحه ولو على حساب غيره. أما عن أهم أنواع هذه الحجج التي وردت في قصة يوسف الصديق فنذكر منها ما يأتي:

1.1 بكاء إخوة يوسف

جاء في الذكر الحكيم [وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ](يوسف/16)، لقد جاء إخوة يوسف إلى أبيهم وقت غيبوبة الشفق الباقي من بقايا شعاع الشمس بعد غروبها يبكون، والبكاء خروج الدموع من العينين عند الحزن والأسف والقهر.

لقد رجع الإخوة في ظلمة الليل ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة وقد اصطنعوا البكاء تمويها على أبيهم لئلا يظن أنهم اغتالوا يوسف عليه السلام: "جاء إخوة يوسف عليه السلام أباهم عشاء يبكون وهم ظلمة كذبة، اصطنعوا البكاء مع عدم وجدان موجبه، وهو فعل غاية في التمويه والكيد".(ابن عاشور، 1997، ص236)

لقد عمد الإخوة الباكون إلى حمل أبيهم على الإذعان إذ أظهروا فعل البكاء في حين أنهم يبطنون عكس ما يظهرون

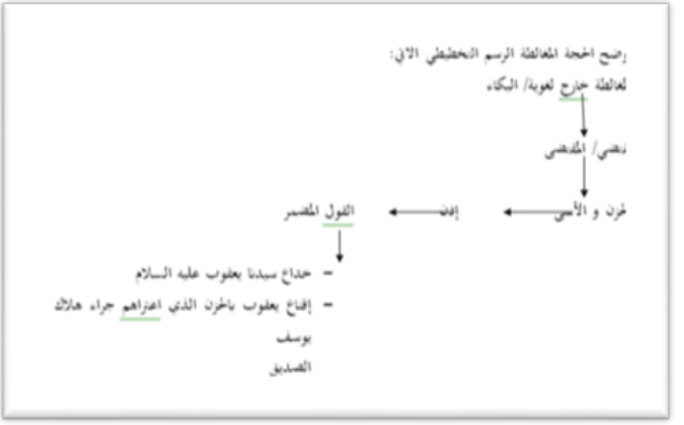

2.1 قميص يوسف الملطخ بالدماء

قال تعالى:[وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ](يوسف/18)

يقدم الاخوة لأبيهم حجة مادية هي قميص يوسف الملطخ بالدماء، لتقوية حججهم وإقناعه بأن يوسف قد أكله الذئب: "لقد ذبح الإخوة جديا من الغنم، ثم لطخوا القميص بدمه، وأقبلوا إلى أبيهم، إن الدم هو دم حقا لكنه ليس الدم المزعوم. ولا شك في أنهم لم يتركوا كيفية من كيفيات تمويه الدم وحالة القميص بحال قميص من يأكله الذئب من آثار تخريق وتمزيق مما لا تخلو عنه حالة افتراس الذئب، وأنهم أفطن من أن يفوتهم ذلك وهم عصبة لا يعزب عن مجموعهم مثل ذلك"(ابن عاشور، 1997، ص238)

لقد حزن يعقوب على يوسف عليه السلام: "حزن سبعين ثكلى، وبكى عليه حتى اَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ؛ لما كان يذرفه من دموعٍ حارّةٍ حزينةٍ أثَّرت على بصره حتى فقده، ولم يكن ذلك بفعل عنصر الجزع، بل بفعل الدموع التي كانت تنساب بهدوءٍ كتعبيرٍ صافٍ عن عمق الحزن الهادئ. إنه حزن على افتقاد قرة عينه وثمرة فؤاده، وما كان يحمله من ألمعية الفكر، وروحانية الروح، وجمال النفس والجسد، وبما كان يُعدُّ له من الموقع العظيم الذي يمنحه اللّه لبعض عباده من ذرية إبراهيم عليه السلام، ممن تجتمع فيه الصفات المميزة التي تؤهِّله لحمل الرسالة والوصول إلى مستوى النبوة. إن القميص الملَّطخ بالدم هو الدليل الكاذب على اتهام بني يعقوب الذئب بأكله يوسف عليه السلام. وهو أيضا إشارة إلى أن حدث الافتراس ليس إلا ادعاءً، وهو قضية غامضة لا يمكن تفسير طبيعتها، والتي بقيت بين احتمال تصديق يعقوب لبنيه في افتراس الذئب يوسف وأكله إياه، واحتمال تآمرهم عليه"(بكر إسماعيل، 1997، ص102-104).

3.1 قميص يوسف المقدود

جاء في الذكر الحكيم [وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ](يوسف /25-26-27).

بلغ حب يوسف شغاف قلب امرأة العزيز، فراودته عن نفسه وبذلت الأسباب لتحقيق رغبتها، فأغلقت الأبواب إغلاقا محكما، فامتنع عليه السلام بحفظ الله وبعصمته، وفر من مراودتها إلى الأبواب يريد فتحهن لكنها لحقته ومزقت قميصه من دبر.

وفاجأهما العزيز عند الباب الخارجي: "فابتدرته بالكلام إمعانا في البهتان بحيث لم تتلعثم، تخيل له أنها على حق، وأفرغت الكلام في قالب كلي ليأخذ صيغة القانون، وليكون قاعدة لا يعرف المقصود منها فلا يسع المخاطب إلا الإقرار لها، إذ كانت تخشى أن تكون محبة العزيز ليوسف عليه السلام مانعة له من عقابه، فأفرغت كلامها في قالب كلي. وكانت تريد بذلك أن لا يشعر زوجها بأنها تهوى غير سيدها، وأن تخيف يوسف عليه السلام من كيدها فلا يمتنع منها مرة أخرى"(ابن عاشور، 1997، ص256)

أرادت أن تثبت أن يوسف هو من راودها، جاعلة من القميص المقدود حجة لها لإيهام العزيز بصدق قولها، و إثبات اعتداء يوسف عليه السلام على سيدته.

وقد سمع الشاهد أن تمزيقا وقع للقميص وكان يظن صدقها فأراد أن يقيم دليلا على صدقها فوقع عكس ذلك كرامة ليوسف عليه السلام .

لا شك أن الاستدلال بكيفية تمزيق القميص نشأ عن ذكر امرأة العزيز وقوع تمزيق القميص، ففسر الشاهد ما سمع كالآتي: "لو أمسكت امرأة العزيز ثوب يوسف لأجل القبض عليه لعقابه لكان ذلك في حال استقباله له إياها فإذا أراد الانفلات منها تخرق قميصه من قبل، وبالعكس إن كان إمساكه في حال فرار وإعراض"(ابن عاشور، 1997ص257). ويمكن توضيح هذه الحجة المغالطية بواسطة الرسم التخطيطي أدناه:

2.مسالك التغليط بالأقوال اللغوية

إن المغالط يستغل كل ما توفره اللغة من إمكانات قصد استدراج المخاطب واستمالته وبالتالي تغليطه، إذ يستند في فعلته إلى آليات تغليطية يضفي عليها صفة الحق أو المشهور كي يوهم المخاطَب بسلامة حجاجه، اعتمادا على مقومات تتعلق بالدرجة الأولى باللغة من خلال خصائصها التركيبية والدلالية والتداولية، أضف إلى ذلك إمكان استغلاله لمجموعة من الظواهر التي تيسر له هذا الأمر، مثل الاستعارة والتشبيه والإحالة الذاتية وقابلية انعكاس ألفاظ اللغة الطبيعية، وغيرها من الظواهر القابلة لجعل صور الشبهة تتعدد وتتكاثر أمام المتلقي، إذ يتوسطها لِطمس الحق وطيه، أو خلطها بالباطل، أو استغلال المتشابه قصد النيل من المحكم، وغير ذلك من السبل التي تكشف عن نيته المبيتة والخبيثة، فالمغالط يستغل البعد البنيوي والوظيفي للغة لجعل المفهوم يغاير المقصود، أو يوهم المخاطب بأن الأمر يهم المقصود وغير المقصود معا، وأنه لا فرق في أخذه بهذا المعنى أو ذاك.(ينظر الباهي، 2004)

أما عن أهم هذا النوع من المغالطات الحجاجية في قصة يوسف الصديق نذكر الآتي:

1.1 الملفوظ: "ونحن عصبة"

ورد الملفوظ "ونحن عصبة" في القصة في حوارين مختلفين: فأما الأول فحِوارُ الإخوة فيما بينهم وذكرهم أن يوسف أحب إلى أبيهم منهم، و أما الثاني فحوار الإخوة مع أبيهم وطلبهم أخذ يوسف معهم للرعي وهو حجة مغالطة اعتمدها الأخوة في خطابهم قصد التمويه والتغليط: "والعصبة: اسم جمع لا واحد له من لفظه، من أسماء الجماعات، ويقال العصابة. قال جمهور اللغويين: تطلق العصبة على الجماعة من عشرة إلى أربعين. وعن ابن عباس أنها ثلاثة إلى عشرة، وكان أبناء يعقوب عليه السلام اثني عشر وهم الأسباط".(ابن عاشور، 1997، ص222)

قال تعالى: [إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِين] (يوسف/8). أراد بعض الإخوة إقناع بعض بأن يوسف أحب الأبناء إلى أبيهم ليتمالؤوا على الكيد ليوسف عليه السلام. ودعواهم أن يوسف أحب إلى يعقوب عليه السلام منهم يجوز أن تكون باطلة أثار اعتقادها في نفوسهم شدة الغيرة من أفضلية يوسف عليه السلام.

لقد تعجب الإخوة من تفضيل يوسف في الحب وهم أكثر عددا، ذلك أن رجاء انتفاع يعقوب منهم أشد من رجائه من يوسف وأخيه، بناء على ما هو شائع عند عامة أهل البدو من الاعتزاز بالكثرة، فظنوا مدارك يعقوب عليه السلام مساوية لمدارك الدهماء، والعقول قلما تدرك مراقي ما فوقها، ولم يعلموا أن ما ينظر إليه أهل الكمال من أسباب التفضيل غير ما ينظره من دونهم".

كما يحمل الملفوظ معنى ضمنيا وهو تجرئة بعضهم بعضا عن إتيان العمل الذي سيغريهم به في قولهم (اقتلوا يوسف)، أي أنا لا يعجزنا الكيد ليوسف عليه السلام وأخيه فإنا عصبة والعصبة يهون عليهم العمل العظيم الذي لا يستطيعه العدد القليل (ينظر ابن عاشور، ص220-221).

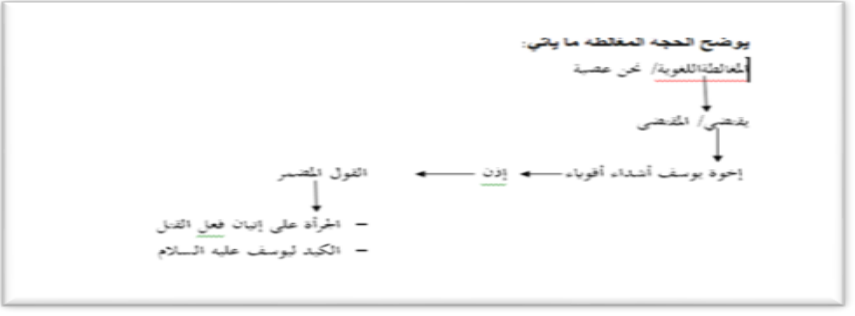

رفض يعقوب عليه السلام خروج فلذة كبده يوسف الصديق مع إخوته إلى الريف وأن ذلك يحزنه لبعده عنه أياما وبأنه يخشى عليه الذئاب، لكن الإخوة المتباكين ألحوا على أبيهم حتى يقبل مغادرته معهم ، وحتى يقتنع يعقوب الكريم بالفكرة ويذعن لأمرهم أبوا إلا المراجعة [قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ](يوسف/14): "واللام في (لَئِنْ أَكَلَهُ) موطئة للقسم، أرادوا تأكيد الجواب باللام، وإن ولام الابتداء وإذن الجوابية تحقيقا لحصول خسرانهم على تقدير حصول الشرط. والمراد: الكناية عن عدم تفريطهم فيه وعن حفظهم إياه لأن المرء لا يرضى

أن يوصف بالخسران. والمراد بالخسران: انتفاء النفع المرجو من الرجال، استعاروا له انتفاء نفع التاجر من تجره، وهو خيبة مذمومة، أي إنا إذن لمسلوبون من صفات الفتوة من قوة ومقدرة ويقظة. فكونهم عصبة يحول دون تواطيهم على ما يوجب الخسران لجميعهم. وفي هذا عبرة عن مقدار إظهار الصلاح مع استبطان الضر والهلاك».(ابن عاشور، 1997، ص232).

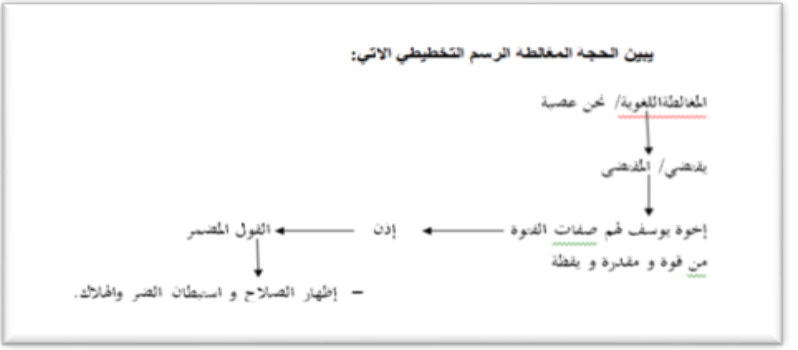

3. مسلك التغليط من جهة البناء والتدليل

يعد مسلك التغليط من جهة البناء والتدليل أسلوبا وآلية منطقية يستند إليها المغالط ليوهم خصمه من خلالها بأنه رتب أدلته وفق طرق منطقية دقيقة ومضبوطة دون أن يكون الأمر كذلك حقيقة، فقد يعمد إلى طي محل الكذب عن السامع، أو يجعل المقدم تاليا أو التالي مقدما أو يوهم الخصم بأنه بنى القياس على مقدمات صادقة أو مشهورة دون أن يكون الأمر كذلك حقيقة(ينظر يعقوبي، 267-271)

أما عن أهم هذا النوع من الحجج التي وردت في قصة يوسف الصديق فنذكر منها الآتي:

1.3 حجاج القوة

هو حجاج يسعى صاحبه إلى حمل المخاطَب على سلوك معين أو على عمل معين سعيا يستند إلى التهديد، يستمد منه الحجة ويسأل الاقتناع الذي يتخذ في نهاية الأمر شكل الاستسلام.(النويري، دت، ص426)

إن إتيان المخاطَب بما أمر به المتكلم أو نهى عنه لا يكون عن اقتناع، كما أن المتكلم لا يعنيه إن كان المخاطَب مقتنعا بما تحقق منه أو لا، فالمهم عنده أن يتحقق ما يرى وجوب تحققه.

ويتجه حجاج القوة إلى سلوك المخاطبين ليُكيِّفه وفق كيفية معينة يريدها، أما ما يفكر فيه المتخاطبون ويعتقدونه فإنه ينحط إلى درجة ثانوية، فالمحاجة بالقوة لا تهتم بقناعات المخاطب ولا تلتفت إلى ما يؤمن به و لا يعنيها أن يقتنع بما يطلب منه.

جاء في الذكر الحكيم [قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ](يوسف/32): "امتنع يوسف الكريم امتناع معصوم، جاعلا المراودة خطيئة عصم نفسه منها، غير أن امرأة العزيز لم تزل مصممة على مراودته تصريحا بفرط حبها إياه، واستشماخا بعظمتها، وأن لا يعصي أمرها، فأكدت حصول سجنه بنوني التوكيد، وقد قالت ذلك بمسمع منه إرهابا له"(ابن عاشور، 1997، ص264)

سعت امرأة العزيز إلى أن ينصاع يوسف الصديق لها، فاستعانت بالعنف والإكراه والإرهاب المعنوي واستغلال السلطة لإجباره على الامتثال قهرا وكرها، إن الحجاج بالقوة هو مغالطة ناتجة عن استخدام العنف.

يوضح الحجاج بالقوة الرسم التحليلي الآتي:

(ك) v (ب)

ليس (ب)

إذن (ك) حيث:

القضية (ك): دخول السجن

القضية (ب): قبول المراودة و إتيان الخطيئة.

2.3 مغالطة أخذ ما ليس بعلة على أنه علة

يطلق على هذا النوع من الحجاج المغالط كذلك :"أخذ ما ليس بسبب على أنه سبب"، ويتم عند تغييب العلل الحقيقية أو اللجوء إلى الأسباب البعيدة التي لا تفسر على الأقل بصورة مباشرة ما ينوي المُغَالِط تعليله. ويتمثل التغليط في أخذ مقدمة في القياس مع مقدمات تلزم عنها نتيجة كاذبة فيوهم مخاطبَه إن تغافل بأن النتيجة لزمت عن تلك المقدمات(ينظر الباهي، 2004، ص180)

يرى "حسان الباهي" أن هذا النوع من المغالطات يشبه مغالطة التالي التي تتضمن مغالطتي نفي المقدم وإثبات التالي، وأن له علاقة بين مجموعة من المغالطات هي:

- المغالطة المتعلقة باستخلاص نتيجة ليست هي النتيجة اللازمة اضطرارا عن المقدمات، بحيث لا توجد أية علاقة بين المقدمات و النتيجة المستخلصة.
- مغالطة إسقاط الشرط؛ أي باستخدام عبارة مشروطة بعد إسقاط شروطها.

-مغالطة الجهل بالمنفذ أو مغالطة عدم ملاءمة النتيجة للمقدمات، بحيث أن الارتباط بين المقدمات و النتيجة يكون عرضيا فقط.(ينظر الباهي، 2004، ص180)

يوضح هذا النوع من الحجة المغالطة ما جاء في قصة الصديق قوله تعالى:[قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ](يوسف/77): "لما بهت إخوة يوسف بوجود الصواع في رحل أخيهم بينيامين اعتراهم ما يعتري المبهوت، فاعتذروا عن دعوى عدم تنزههم عن السرقة إذ قالوا وما كنا سارقين، عذرا بأن أخاهم قد تربت إليه خصلة السرقة من غير جانب أبيهم فزعموا أن أخاه الذي أشيع فقد كان سرق من قبل. وقولهم (قد سرق أخ لهم من قبل) بهتانا ونفيا للمعرة عن أنفسهم"(ابن عاشور، 1997، ص)

ويمكن استنتاج رسم مفصل للقياس الخاطىء/ الفاسد الذي وظفه إخوة يوسف قصد التمويه والتضليل:

ق" ٨ "ك"

إذن "ن" حيث:

"ق"= مقدمة1: بينيامين ويوسف إخوة أشقاء

"ك"= مقدمة2: يوسف سرق من قبل

"ن"= النتيجة: بينيامين سارق.

العلة: الأخوة

ومن المغالطات كذلك، تلك المتعلقة باستخلاص نتيجة ليست هي النتيجة اللازمة اضطرارا عن المقدمات، بحيث لا توجد أية علاقة بين المقدمات والنتيجة المستخلصة الحجة التي اصطنعها الإخوة حتى ينفرد والدهم بهم دون يوسف، ولن يتحقق ذلك في تصورهم إلا بإبعاد يوسف عن أبيه من طريق قتله. جاء في الذكر الحكيم [اقْتُلُوا يُوسُفَ أَو اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ] (يوسف/9)

أراد الإخوة اختلاق شيء يفرق بين يوسف وأبيه عليهما السلام: "تفرقا لا يحاول من جرائها اقترابا، بأن يعدموه أو ينقلوه إلى أرض أخرى فيهلك أو يفترس. وهذه آية من عبر الأخلاق السيئة، وهي التخلص من مزاحمة الفاضل لمن هو دونه فيه أو مساويه، بإعدام صاحب الفضل، وهي أكبر جريمة لاشتمالها على الحسد، والإضرار بالغير، وانتهاك ما أمر الله بحفظه، وهم قد كانوا أهل دين ومن بيت نبوة. والنتيجة المرجوة من القتل هي أن يخل لهم وجه أبيهم، والخلو حقيقته الفراغ، وهو مستعمل

مجازا في عدم التوجه لمن لا يرغبون توجهه له، فكأن الوجه خلا من أشياء كانت حالة فيه"(ابن عاشور، 1997، ص223).

إن الرغبة التي يريدون تحقيقيها هي أن يخلو وجه أبيهم لهم، أي أن يخلو ممن عداهم فينفرد لهم.

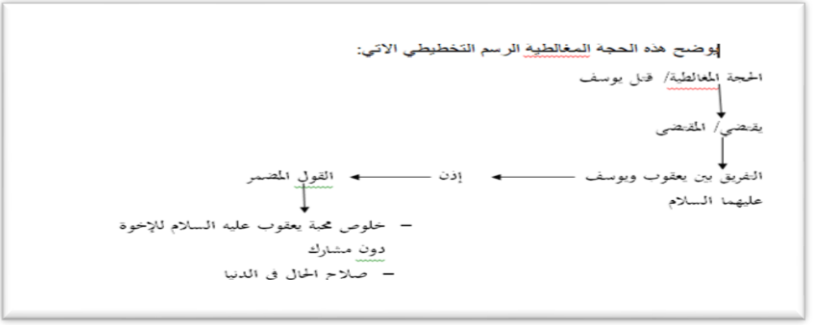

خاتمة

الحجاج المغالط هو الوجه السلبي للحجاج السليم، يتعمده المحاور قصد التمويه والاستدراج مكرا وحيلة وخداعا لمتلقيه، حتى يذعنه رهبا أو رغبا. وكانت قصة يوسف عليه السلام أروع ما قدمه القصص القرآني من حيث تصوير أهواء النفس الماكرة المخادعة، وتبيان الأساليب اللفظية والمادية التي اعتمدتها قصد الظفر بما ترجو كذبا وتدليسا. وقد أحب يعقوب عليه السلام يوسف حبا جما، فكان فرط محبته له سببا في غيرة إخوته منه فكادوا له مكيدة، وتوالت المآسي ليوسف حتى منّ اللّه عليه بجعله عزيز مصر، وثبتت رؤياه بأن سجد له أبويه وإخوته.

قدمت الدراسة بعض أوجه المغالطات الحجاجية التي قدمها الإخوة الماكرون بين يدي يعقوب عليه السلام وعزيز مصر، وبينت صنفها ووضحت الضمني المنطوي فيها وأثره في إيهام المخاطب وحمله على الاقتناع.

مثّل البكاء والقميص الملطخ بالدماء حجتان مغالطتان غير لغويتين، قصد باستخدامهما خداع يعقوب عليه السلام وحمله على تصديق الرواية المزعومة بأن الذئب أكل يوسف غير أن ذئاب الشام كلها بريئة من دم يوسف. ومثّل القميص المقدود، مع امرأة العزيز، حجة استدلت بها على إثبات اعتداء يوسف عليه السلام عليها، موهمة بذلك العزيز بصدق كلامها، مرهبة يوسف بسجنه وعقابه. ومثّل

الملفوظ "ونحن عصبة" حجة لغوية مغالطة، وظفها الإخوة الحاسدون إظهارا منهم للصلاح حتى يسمح يعقوب ليوسف بالذهاب معهم، غير أنهم استبطنوا الضر والهلاك. ومثّل حجاج القوة حجة مغالطة ناتجة عن استخدام العنف المعنوي، وهذا ما بينه قول امرأة العزيز عندما هددت يوسف الصديق بالسجن، وجعلت قبوله الخطيئة مفازة له من السجن والعذاب.

ومن الحجج التي استند إليها إخوة يوسف ليقتنع العزيز من خلالها بأنهم رتبوا أدلتهم وفق طرق منطقية دقيقة ومضبوطة دون أن يكون الأمر كذلك حقيقة، قولهم بأن يوسف سارق وأن أخاه بينيامين سارق أيضا، نافين بذلك المعرة عن أنفسهم بهتانا وكذبا. واصطنع الإخوة حجة مغالطية لإقناع بعضهم بعضا هي: "قتل يوسف" متوهمين أن تحققها سيؤدي بخلوص محبة أبيهم لهم دون مشارك، فضلا عن صلاح الأحوال في عيشهم مع يعقوب عليه السلام.

قائمة المراجع

1. إسماعيل، محمد بكر،1997،قصص القرآن الكريم، من آدم عليه السلام إلى أصحاب الفيل، ط2،مصر، دار المنار.
2. الباهي حسان،2004، تهافت الاستدلال في الحجاج المغالط، ع61،مجلة فكر و نقد، المغرب.
3. الباهي حسان،2004، الحوار و منهجية التفكير النقدي،دط، المغرب، إفريقيا الشرق.
4. الراضي رشيد،2008،السفسطات في المنطقيات المعاصرة، التوجه التداولي الجدلي نموذجا،مجلد 36، ع4، الكويت، عالم الفكر.
5. بن عاشورالطاهر،1997 تفسير التحرير و التنوير،دط،تونس،مجلد5، الجزء12، دار سحنون للنشر و التوزيع.
6. الفارابي، 1986،كتاب الأمكنة المغلطة، تحقيق رفيق العجم ، دط،، بيروت.دار المشرق.
7. الفيروزبادي،2005، القاموس المحيط، ط8، بيروت، مؤسة الرسالة.
8. القرطاجني حازم،،1986منهاج الأدباء و سراج البلغاء، تحقيق محمد الحبيب بلخوجة،ط3، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
9. ابن منظور، ،2003 ،لسان العرب،دط،ج11،بيروت ، دار صادر.
10. النقاري حمو، 2006 ، من منطق بول رويال في سوء النظر و التناظر و وجوه الغلط و التغليط، ضمن كتاب التحاجج، طبيعته ومجالاته و وظائفه، ،ط1،ا،الرباط،منشورات كلية الآداب ، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدية، .
11. النويري محمد ، 1999، الأساليب المغالطية، مدخلا في نقد الحجاج، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم،مجلدXXXIX،تونس، كلية الآداب منوبة.
12. يعقوبي محمود،1992، دروس في المنطق،ط2 الجزائر،ديوان المطبوعات الجامعية.